محاضرة في:

البحث العلمي بين منطق التكامل وآفات التحامل

أ.د. محمد خروبات

أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بمراكش.

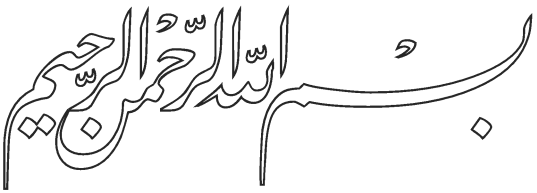

الكتاب: **البحث العلمي بين منطق التكامل و آفات التحامل.**

تأليف: **الدكتور محمد خروبات**

تصميم الغلاف: **إبراهيم أحتشاو**

الرقم المعياري الدولي للكتب:

ISBN : **978-9920-34-429-6**

المكتبة الوطنية للمملكة المغربية -الرباط.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©

عناصر المحاضرة

تقريظ للأستاذ الدكتور محمود الرفاعي العواطلي.....5

أولا : المدخل المنهجي 7

1- كلمة شكر: 7

2: المحدّدات والضوابط العامة.....8

3- التكامل المعرفي والبحث العلمي 12

4- معادلة منهجية 13

ثانيا: التكامل من حيث المعاييروالمستلزمات 17

1- التكامل : الأنواع والتوظيف السلبي 17

2- التكامل بين التأصيل والتفعيل.....21

3- مقاربة لتكامل العلوم الإسلامية مع الإنسانية 25

4- تكامل المعارف مطلب إصلاحي.....28

5- التكامل خصوصية نقلانية 29

ثالثا: المواصفات السلبية للتكامل.....30

1- سبب ذاتي نفسي :.....31

2- سبب علمي تكويني :.....31

3- سيادة خطاب التعجرف :.....32

4. مُجدّدون على رأس كل أسبوع : 33

5- مواصفات سلبية أخرى:.....34

رابعا: القراءة الجديدة للقرآن : تقويم وتقييم 37

1- "القراءة الجديدة للقرآن" في ميزان تكامل المعارف 37

2- متطلبات المنهج في القراءة 41

3- عناصر المنهج والقراءة المضادة 45

4-عالمية الخطاب القرآني: 47

5- مكونات عالمية الخطاب القرآني 49

تقريظ للأستاذ الدكتور محمود الرفاعي العواطلي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد قرأت محاضرة (البحث العلمي بين منطق التكامل وآفات التحامل) كله على نفس واحد في جلسة واحدة لم يفصل بينها الا صلاة الجمعة عندنا، وقد ارسلته لبعض الاخوة منهم الدكتور هشام والدكتور يوسف وبعض أهل العلم، وأتمنى أن يرسل إلى رؤساء الجامعات، وعمداء الكليات، أو حتى وزارات التعليم في المشرق والمغرب لتعم الفائدة. حقيقة إنه علاج لداء مستفحل في هذا الزمان، وهو فتح من الله عليكم نفع الله به وبكم وكل باحث عن الحقيقة، إنه وصف للداء والدواء، لم يحلق في عالم الخيال بل في عالم الواقع المرير من غير تنطع ولا تشنج، ومن غير إقلال ولا إملال، وبكلام عقلاني ومنطقي متزن، وبلا إفراط ولا تفريط في الثوابت والأصول، متح من الثقافة الحقة، ومما يجب أن يوجه اليه كل باحث علمي عن الحقيقة بالمنطق العلمي والذي لا يستخف بالعقول ولا يصادرها، ولا يحيد عن الثوابت فهو بمثابة خطة سليمة، وقاعدة متينة للانطلاق لمنهج علمي سليم، وخاصة

لطلاب البحث العلمي والدراسات العلمية بل وحماية الجيل الجديد من التغريب.

ولا مانع لدي من أن تكون هذه الكلمة الموجزة المقتضبة فور الانتهاء من القراءة العاجلة بمثابة تقريظ.

نفع الله بكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم أ.د. محمود الرفاعي / الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،

فمدار هذه المحاضرة على أربعة محاور : الأول مدخل منهجي ، والثاني في التكامل من حيث المعايير والمستلزمات، والثالث في التكامل من حيث السلبيات والإيجابيات ، والرابع والأخير في القراءة الجديدة للقرآن الكريم تقويما وتقييما .

أولا : المدخل المنهجي

نستهله بكلمة شكر، ثم بالضوابط والمحددات العامة للمحاضرة ، ثم علاقة التكامل بالبحث العلمي ، ثم نطرح فيه أخيرا بعض المعادلات المنهجية .

1- كلمة شكر:

أشكر المركز المغربي للاقتصاد التشاركي على الاستضافة، هذا المركز الناشئ الذي يسهر عليه أساتذة فضلاء وطلبة باحثون نجباء وضعوا على عاتقهم خدمة العلم والمعرفة عن طريق الحوار المباشر، والمناقشة البانية والهادفة ، وعلى الرغم من أن هذا المركز يُعنى بالاقتصاد الإسلامي فإنه فتح بابه

لمطارحة هذا الموضوع رغبة في الانفتاح وطلبا لتحقيق التكامل بين العلوم والمعارف [1].

حين أطلعني الإخوة على أسماء المتدخلين وجدْتُ من بينهم أساتذتنا وشيوخنا الذين نُقدرهم، فوددنا لو كانوا هم المتكلمين والمحاضرين ونحن المستمعين، على هذا الاعتبار سنخفف من النبرة ، وسنقلل من حدّة الفكرة آملين أن نُفيد ونَستفيد.

لم نأت في المحاضرة على كل ما يجب أن يقال لضيق الوقت لذلك التزمنا في هذه الورقة بنشر المحاضرة كاملة .

2: المحدّدات والضوابط العامة

أحب في البداية أن أحدّد لهذه المحاضرة إطارها العام الذي سنتحرك فيه ، وهو :

[1] - ألقيت المحاضرة في إطار سلسلة " ضيافة عالم" التي ينظمها المركز ، تاريخ 2 أكتوبر 2021م عبر تطبيق الزووم ، والتسجيل الكامل للمحاضرة ولوقائع المناقشة على صفحتنا الأكاديمية في الفيس .

1- التكامل المعرفي وعلاقته الوجودية بالبحث العلمي، إذ لا يمكن أن نتصور " تكاملا" خارج إطار البحث العلمي، وإن وُجد فلا يعنينا هنا.

2- البحث العلمي المقصود هنا هو البحث في العلوم الشرعية، والعلوم الشرعية هي العلوم الإسلامية ، والتي تجمعها " الدراسات الإسلامية " التي هي شُغلنا وتخصصنا .

3- الدراسات الإسلامية لها خصوصية معيّنة من جهة "تكامل العلوم والمعارف" ، لمّا تأسّست الشعبة في الجامعات المغربية منذ سنة 1980 تأسست على التكامل ، وبصفتي من الفوج الثاني للشعبة أشهد بأن شعبة الدراسات الإسلامية درّستْ فيها كلّ الشعب : التاريخ ، الجغرافيا، الفلسفة، علم الاجتماع، اللغات اللاتينية ، اللغات الشرقية ،القانون ، علوم التربية ، الأدب ، دار الحديث الحسنية إلخ.

كلامي إذن عن "العلوم الإسلامية" التي تُدرَّس داخل الدراسات الإسلامية ، حيث كان التكامل حاضرا ، بل كان التكامل مُؤسسا ل " المعرفة " داخل هذه الشعبة.

4- لا يعني هذا الانفتاح وهذا التكامل أن الشعبة ذابت خصوصيتها ، أبدا ، لقد التحق بالشعبة أساتذة متخصصون في العلوم الإسلامية كالحديث والسيرة والفقه والأصول والعقيدة وعلوم القرآن واللغة العربية والتاريخ فحقّقوا للعلوم الإسلامية توازنها على مستوى المعرفة ، لكن على مستوى " التكوين" بقي التكامل والانفتاح حاضرا .

5- لم يكن هذا رهينا بالتدريس فقط، بل تأسست إلى جانب الشعبة جمعية اسمها " ملتقى العلوم والمجتمع" ، مؤسسها هو أستاذنا محمد بن البشير الحسني ، قامت بعدّة أنشطة علمية يطبعها التكامل ، وكنتُ أحد أعضائها ، كما تأسست الدائرة العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية والتي كان يسهر عليها ويديرها فضيلة أستاذنا الدكتور فاروق حمادة ، وإلى جانب الدائرة مجلة "بصائر الرباط" ، كانت الدائرة والمجلة التابعتان لشعبة الدراسات الإسلامية في الرباط ولكلية الآداب بالرباط تبنيان مُجمل أنشطتهما العلمية ومقالاتهما المنشورة على "التكامل المعرفي" ، وبصفتي عضو الدائرة، فقد دوّنت أشياء

كثيرة بقلمي عن مُجمل المحاضرات التي كانت تُلقى - في الدائرة- بما فيها دورة خاصة عن "الاقتصاد الإسلامي" .

لم أذكر كل الجمعيات، وكل المجموعات المتخصصة، وكل الأسماء اللامعة فقد أشرتُ إلى ما كنتُ أنتمي إليه وحضرت فيه حتى تكون شهادتي المعرفية موضوعية وواقعية.

6- لذلك أقول : إذا كانت هناك شعبة تحقق فيها التكامل فهي شعبة الدراسات الإسلامية، ونحن اليوم حين نتكلم عن "التكامل المعرفي" إنما نتكلم عن خصوصية يجب أن نُحافظ عليها إن هي مازالت موجودة، أو نسعى إلى تكميلها إن ضاع منها ما ضاع، أو نطمح إلى إرجاعها إن ضاعت، أو أن نُصوب خللها إن زاغت عن الهدف، وهذه الأمور لا يمكن أن نُجيب فيها بإجابة حاسمة لأن الشّعبة تشعبت إلى شُعب، وكل شُعبة أصبحت جزيرة معزولة رغم وجود لجنة تنسيق تنظم العلاقات بين الشعب، وتلتقي على مستوى الأنشطة وتفعل القرارات وتواكب الاصلاحات المتتالية ، وهي اللجنة التي كان يسهر عليها أخونا الدكتور العربي بوسلهام تغمده الله برحمته .

ترحّموا على الدكتور العربي بوسلهام فإنه كان في هذا الموضوع سيّدا من جهة "التكوين"، كان يسهر على تكوين الطلبة ب "تكامل المعارف"، وهو الأمر الذي ورثه من خصوصية الشعبة، ولو كان بيننا اليوم لكانت له الكلمة في هذا الموضوع.

3- التكامل المعرفي والبحث العلمي

نرجع الآن إلى تقويم موضوع التكامل المعرفي في البحث العلمي، فقد انحصر الكلام فيه في عدة مجالات، تعددت هذه المجالات بتعدد وجهات النظر وأساليب البحث والمعالجة.

أ- تكامل المعارف في الإصدارات العلمية ، نعني بها الكتب والمقالات والمنشورات .

ب- تكامل المعارف في الندوات والمؤتمرات الوطنية والدولية .

ج- تكامل المعارف في المحاضرات والدروس الأكاديمية وغير الأكاديمة ، مرئية ومسموعة.

د- تكامل المعارف في وحدات التكوين الجامعية ، وفي رسائل الماستر والدكتوراه .

كل مجال من هذه المجالات يمكن تقويمه ، والكلام فيه تأييدا أو نقدا ، وأحبّ أن اشير إلى أننا في هذا الكلام لم نتكئ على أي من هذه المجالات المذكورة سوى على مجال واحد هو مجال " التجربة العلمية والتكوينية " في التدريس والبحث داخل الجامعة، وحين ننطلق من " التجربة" ونُعاين هذه المجالات تظهر لنا أمور كثيرة، بعضها يصلح للتأييد، وبعض آخر للتعديل أو التحييد .

أعني ب "التجربة" ممارسة مهمة التدريس والتكوين في الجامعة لسنوات طويلة ، وتدريس قرابة أربعين مادة في الأسلاك الجامعية الثلاث، مع ممارسة أنشطة البحث العلمي بما يتوافق مع عنصر التكامل المعرفي الذي نتكلم عليه .

4- معادلة منهجية

افتُعلت الخصومةُ بالأمس بين الدين والفلسفة والعلم، وتقاطرتْ الكتابات في الموضوع لأجل التصالح والتجانس والتوفيق والرد الحاد والمخفف بين هذا الاتجاه وذاك ، ثم اتضح فيما بعد أنها ملهاة فكرية، ورياضة فكرية تسخينية لمبارة برزت

اليوم بين اتجاهين من المفروض أن يكونا متجانسين، اختفت الخصومة بين الدين والفلسفة والعلم لتحل محلها خصومة هي أشد فداحة بين الدين والمتدينين ، كل الأديان تعرف تصالح معتنقيها ، فالهندوس متصالحون مع الهندوسية ، واليهود يعانقون يهوديتهم وكذلك المسيحيين في حين تجري اليوم معركة حامية الوطيس بين الإسلام والمسلمين ، وبعض هؤلاء للأسف مفعول بهم بثقافة الآخر غير فاعلين في ثقافتهم وبثقافتهم .

حين ينشد المفكرون الغربيون البحث عن البديل أو البدائل فهذا يعنيهم ولا يعني الثقافة الإسلامية في شيء، فلا الدّين الذي انتقدوه هو الإسلام ، ولا كتابهم المقدس هو القرآن الكريم، ولا المجتمع الغربي بتركبته الخاصة هو المجتمع الإسلامي بتقاليده وأعرافه، إن التقاط الآراء والمزاعم والانتقادات من الفكر الغربي وإسقاطها على الثقافة الإسلامية تحت ما يسمى ب " تكامل العلوم والمعارف " ، أو " تجديد القراءة " هو عين الأزمة في الثقافة العربية الراهنة ، أزمة الفهم ستبقى متماثلة بذاتها مادامت هذه الإسقاطات قائمة، كم من باحث في هذا الموضوع يتكلم عن العائق الإيبيستيمولوجي ويسعى إلى معالجته وهو غير

متحرر منه، فلا يمكن معالجة العوائق المعرفية المبسطة بالعوائق المعرفية المركبة.

يبدو البعض أسيرا في قفص معارف معينة، قرأها وغاص فيها ولم يستطع التحرّر منها، وجعل من القرآن الكريم مجالا لترويج معارف لائقة بواقعها وبثقافتها ، كتبها أصحابها لمعالجة أزمات ثقافتهم وحضارتهم يعد اجترارها وإسقاطها ظلما مركّبا : ظلم لهذه المعارف... حتى إذا تصدّينا لها بالنقد يظن بأننا ضد هذه المعارف في ذاتها والأمر ليس كذلك، وظلم للقرآن وللنص الشرعي المُسقط عليه بطريقة عشوائية وتلقائية.

فهل تصح نسبة كل ما قيل أو كتب للمجال العلمي؟ هل كل ما كُتب في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات والهيرومينوطيقا والفيزياء والكيمياء والإيبيستيمولوجيا والطب وعلم الفلك ومناهج العلوم المادية والطبيعية وتاريخ الأديان والعقيدة وعلم الكلام وكلام الفرق والطوائف وأقوال الشعراء من الغرب والشرق يصلح أن نقرأ به القرآن ، هل تعذّر فهم القرآن وتعسّر إدراك أحكامه حتى نُسقط عليه كل هذه الفهوم ؟

نخشى أن تُصبح هذه ثقافة جديدة في التعامل مع النّصوص الشرعية، يظن من يسلكها بأنها هي الثقافة الجديدة والحديثة الموصلة إلى غاية غير مُحدّدة سلفا، بحيث تُصبح هذه الدراسات باسم (التكامل) هي الغاية ، وهذا ينحو بها من التكامل بين العلوم إلى (التحامل) على العلوم .

هناك سؤال آخر جدير بالطرح : هل يمكن أن تتجاور التكنولوجيا الحديثة مع العلوم الإسلامية ؟ وهل يمكن إدماجهما في بعضهما بما يخدم رغبة العلوم الإسلامية في تطوير نفسها بما يتلاءم مع خصوصيتها؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب التفريق بين رغبتين :

- رغبة إسلامية ورغبة غربية، فالرغبة الإسلامية تطمح لذلك، بناء على أنّ كل ما هو حق ونافع سيكون بالضرورة مفيدا، والحق لا ينافي الحق ، والإبداع البشري ملك مشاع للجميع لا يُحارب ولا يُعادى.

- رغبة غربية تحاول هدم العلوم الإسلامية وإزاحتها ، فالتكنولوجيا لا يمكنها أن تتعايش مع العلوم الاسلامية تحت

صيغة (الصراع بين العلم والدين) ، العلم واحد لكن الدّين يختلف، فالعلم عاش في صراع مع المسيحية ، بخلاف الاسلام فهو يرحب بالعلم ،ويدعو إليه ، ويُشجع عليه، ولا يمكن إسقاط ذلك عن هذا ، فقوله تعالى : (لكم دينكم ولي دين) كافية في إيجاد الفرق وإثبات الفصل .

ثانيا: التكامل من حيث المعايير والمستلزمات

يشتمل هذا المحور خمسة عناصر أساسية: الكلام عن التكامل من حيث الأنواع والتوظيف السلبي، ومن حيث التأصيل والتفعيل، ثم تقديم مقاربة لتكامل العلوم الإسلامية مع الإنسانية، مع بيان أن التكامل مطلب إصلاحي وخصوصية نقلانية.

1- التكامل : الأنواع والتوظيف السلبي

يختلف التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والطبيعية .

أ- تكامل العلوم الإسلامية مع العلوم الإنسانية والطبيعية شيء، لأنه ينطلق من رغبة العلوم الإسلامية باتجاه العلوم الأخرى.

ب- تكامل العلوم الإنسانية والطبيعية مع العلوم الإسلامية وهذا شيء آخر ، لأنه ينطلق من رغبة العلوم الأخرى باتجاه العلوم الإسلامية. و" التكامل " لا يعني الذوبان والانصهار والاندماج ، إذ لو كانت الرغبة هي الذوبان والانصهار لسمينا الأمور بمسمياتها ولما طرحنا موضوع " التكامل" .

أضحى التكامل المعرفي مطلبا ملحا في العلوم الإسلامية وفي بحث هذه العلوم وما له صلة بقضايا المجتمع والمستجدات المعاصرة، وقد أقيمت في الموضوع ندوات وتظاهرات علمية عالجت هذا الموضوع من زوايا متعددة ، العلوم الشرعية تطمح إلى التكامل الذاتي فيما بينها ، وترغب في تحقيق هذا التكامل مع العلوم الإنسانية، ولِم لا؟ فقد يتحقق ذلك مع العلوم الطبيعية أيضا، لكن الذين نظَّروا للتكامل بين العلوم لم يضعوا معايير منهجية لكيفية تحقيقه بحيث أُخذ الموضوع على إطلاقه، ووجد أصحابُ الضم والتكديس ، والباحثون عن الغرابة ضالتهم من

دون ذوق علمي ولا تخطيط منهجي يراعي خصوصية المواضيع المعالجة قبل مراعاة العلوم. فلمْ تتحقق معالجة الموضوع ، ولم تُحافظ العلوم على خصوصياتها ، لقد اختلط الفقه بالفكر، والمقاصد بالفلسفة ، والشريعة بالقانون ، والأدب والنحو باللسانيات والسيميائيات ، والمنطق بالأصول ، والحديث وشروحه بالإبستيمولوجيا وقضايا الكلام ، والعقيدة الإسلامية بتاريخ الأديان ، وحصلت خلطة عجيبة من ركام من الإنتاجات غير الملتئمة وغير المنسجمة... مما يظهر أن غياب "تقنين التكامل" أفضى إلى "تحامل" على خصوصيات العلوم والمعارف الإسلامية. نحن لا ننشد الانغلاق، ولا ندعو إلى التقوقع ولكن ننشد التكامل المنهجي الهادف والواعي من دون مزجٍ ممل أو إفراطٍ مخل.

لا نريد من " التكامل" أن يكون شعارا نرفعه لغرض المُتعة النظرية ، ولا وسيلة للنيل من العلوم الإسلامية أو لنصرة بعضها على بعض باسم النقد والتجديد وإعادة القراءة والفهم، بل نريد منه أن يكون بدافع الحاجة لتحقيق الرغبة العلمية لخدمة المعرفة الإنسانية.

يجب التفريق بين نوعين من تكامل المعارف :

- **تكامل محمود** مطلوب ومشروع في العلوم ، وهذا النوع من التكامل أصيل ، مطلوب شرعا ، ومارسه العلماء في صناعاتهم العلمية ، ولذلك فالمطالبة به ليست بجديدة ، وقد فرضتها طبيعة الممارسة التقزيمية مع العلوم ، فحين طغى التخصص تقلصت دائرة المعرفة الإسلامية للحياة والوجود والكون والموضوعات التي تفرض نفسها في البحث ، ما نُطالب به هو دفع الطلبة الباحثين إلى القيام بدراسات علمية عبر رسائلهم الجامعية في بحث التكامل عند علماء الأمة المتقدمين ، هذه الدراسات التطبيقية تُبعدهم عن التجريد، وتربطهم بالمعارف المتكاملة .

- **وتكامل غير محمود** يريدون به إدخال مناهج وطرق ومفاهيم ونظريات في حقل العلوم الإسلامية من علوم أخرى لغرض التضييق على المعرفة الإسلامية وتهميشها وصرفها عن مقاصدها وأهدافها، وهي المحاولات التي قام بها المستشرقون وغيرهم حين أغاروا على العلوم الإسلامية وأخرجوها في لون آخر ، هذا النوع من التكامل هو الذي يراد استغلاله في القراءة

الجديدة للقرآن الكريم ، فقد وُظف سلبيا في عملية القراءة السلبية للقرآن، ومن هنا فالعلاقة بين هذا النوع من التكامل والقراءة الجديدة علاقة الوسيلة بالغاية: وسيلة القراءة الجديدة هي التكامل ، والغاية من التكامل تحقيق قراءة جديدة.

2- التكامل بين التأصيل والتفعيل

تحوم العلوم والمعارف حول القرآن والسنّة النّبوية ، وتدور حولهما دوران الأرض حول الشمس بجاذبية قوية وبحركة متناسقة، القرآن ليس علما وكذلك السنة، بل هما وحي منزّل ، من شمسهما بزغت العلوم ، ولذلك اتجهت إليهما الأنظار لخدمتهما. القرآن الكريم أكمل الله به الدين: (اليوم أكملت لكم دينكم)، والسنة تمّت بها النعمة : (وأتممت عليكم نعمتي)، وهما أصول دين الإسلام الذي ارتضاه الله لنا بقوله : (ورضيت لكم الإسلام دينا).

لم يكن (التكامل) بدعا من القول ولا هو شعار حل بالمكان بلا زمان، بل مورس في حقل العلوم الشرعية، وكان "التكامل" أحد خصوصيات العقل الإسلامي الذي أبدع في مجالات شتّى،

وظهرت في تاريخ هذه الأمة عقول مارست التكامل المعرفي من دون تهويل ولا عويل، نذكر من هؤلاء : الشاطبي والشافعى وابن خلدون وابن العربي والغزالي وابن رشد والسيوطي وابن حزم وابن القيم وابن تيمية والقاضي عياض وغيرهم. أولئك الذين **انفتحوا على كل العلوم من موقع السيادة المعرفية وتملك الاكتساب العلمي المنهجي، كل واحد منهم مارس التكامل المنهجي بطريقته ووفق مشروعه العلمي ، هؤلاء كانوا يُدركون قيمة التكامل ، ونوعية التكامل ، وكيفية التكامل** ، لم تستمر هذه الخصوصية ، بل توقّفت. والذين ينشدون التكامل من الباحثين الجُدد لم يستوعبوا الدّرس من الغرس ، ولم يحقّقوا ما حقّقه الأوائل.

واليوم نعيش ادعاءً للتكامل من دون إعدادٍ له ، الادعاء عند هواة تجديد قراءة القرآن الكريم ، ففي خطّهم ارتباك كبير وخلل بيّن ، فالمدّعي للقراءة والرّاغب في التكامل بين العلوم يجب أن يكون دقيق الكلام ، وجيز العبارة ، مُدركا لأزمة الفهم ، ومُشخّصا لعلاماتها ، مُتملكا لمناهج وطرق وأساليب معالجة النص ، واقفا عند حدود العلوم والمعارف ، يُقدم الخلل ويطرح

البديل ، والبديل المقصود هنا هو المتعلق بالخلل ، دراسات كثيرة تدّعي تحديد الخلل لكن العلاج بعيد عن مقتضياته .

إن التكامل المنشود هو التكامل الذي يقتضيه الموضوع المُعالَج ، هل الموضوع يقتضي ذلك ، وما نصيب ما قُدم في عملية معالجة الموضوع ، لا بد من توضيح الرؤية عند الباحث ، فالباحث مثل الطبيب، والموضوع مثل المريض ، وتعامل الباحث مع الموضوع كتعامل الطبيب مع المريض: هل يأخذ دواء واحدا أودوائين أو ثلاثة أدوية أو أربعة، كذلك الحال مع الموضوع: هل يقتضي تخصصا واحدا أو تخصصين أو ثلاثة أو أربعة ، وهذا ما نقف عليه فيما يُسطره الطلبة الباحثون في مقدمات أطروحاتهم حول " مناهج البحث " ، فيذكر منهجا أو منهجين أو ثلاثة أو أربعة .

لا بد إذن من تحديد القصد من البحث، هل القصد هو الجمع لأجل الجمع أم القصد هو معالجة الموضوع إن تفسيرا أو فقها أو أصولا أو لغة أو موضوعا اجتماعيا من المستجدات المنوي مُعالجتها؟

ونحن في مناقشة الرسائل الجامعية لم نعد أمام معالجة الموضوع الذي حدّده الطالب في بحثه، بل أصبحنا أمام ظاهرة أخرى هي أخطر من الموضوع المعالج، وهي عملهم العجيب الغريب الذي جمع القوادح والآفات متذرعا ب " تكامل العلوم" .

لقد أصبحت هذه الدراسات والقراءات التي تدّعي التكامل تفتقر إلى الرؤية التفسيرية من مصادر التفسير ، وإلى تحكيم قواعد علم التفسير في فهم معاني القرآن ، وإلى الأسلوب اللغوي العربي العلمي الرصين، كما تفتقر إلى التأصيل الذي أصبح ينظر إليه كمسحوق للتجميل ليس إلا... تغييب السنة النبوية ويغيب الحديث النبوي الشريف، فمن السنة - قولية وعملية - ما يُفسر القرآن ويُجلي معانيه...كل هذا يدفع إلى التساؤل: **ألا تدخل هذه المبادئ ضمن تكامل العلوم والمعارف، وهل التكامل يعني إلغاء العلوم والفنون الأساسية واعتماد السطحية والثانوية البعيدة عن المراد؟**

لا بدّ من توضيح الرؤية في موضوع تكامل العلوم والمعارف، فالمطلوب في التّكامل هو **تحقيق عنصر "التناسب" بين المادة العلمية المُقتبسة** ، هل ما اقتُبس من كتابٍ في الفلسفة يتناسب

مع سياق موضوع فقهي؟ هل النصّ الذي أُخذ من كانط يتساوق مع آيةٍ قرآنية؟ وكيف أفسر وجود قولة لماركس من كتاب رأس المال مثلا بجانب آية من القرآن ومجال الموضوع هو التفسير؟ أشياء كثيرة من هذا الفعل تستوقف الباحث.

تُقدم الخلطة العجيبة ركاما من الكلام ، واستبدال (الكم) بكم آخر لا معنى له في سياق ادعاء التجديد وانتحال التكامل بين المعارف والعلوم. وعلى المُدّعي للتكامل التساؤل أولا : ما علاقة عنصر التكامل المطلوب بالبحث العلمي؟ وهل هذه المحاولة سترجع بالنفع على البحث العلمي؟ ومقياس ذلك هو الموضوع الذي هو مجال الدراسة ، هل هو في حاجة إلى التكامل، وهل الموضوع يقتضيه ؟

الإجابة على هذه الأسئلة من شأنها توضيح الغاية والهدف من التكامل المراد تفعيله في البحث.

3- مقاربة لتكامل العلوم الإسلامية مع الإنسانية

لم نفتعل قضية "التكامل" ولم نتكلف طرحه بل جاء تحت ضغط الحاجة وبدافع الضّرورة العلمية والمنهجية ، وهي أمور

يجب على الباحثين إدراكها وتقديرها، فالموضوع يتجاوز "التخصّص" ولا يتقوقع في "الخصوصية "بل ينطلق منها ليخدمها ، لا نتكلم عن التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، فهذا من باب تحصيل الحاصل، والممارسون للعلوم الإسلامية والمشتغلون بها يُدركون هذا جيّدا ، لكنّ الكلام في هذه الفقرة يتّجه صوب التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية ، وهو مطلب وجيه للأسباب الآتية:

- **الأول** لطبيعة "التجاور" بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية ، فالعلوم الإسلامية التي تدرس في "الدراسات الإسلامية" يوجد أغلبها اليوم في كليات الآداب والعلوم الإنسانية ، فلا مناص من ربط الجسور والانفتاح على العلوم والمعارف ، والمهتمون بالشأن التعليمي بكل مستوياته يُصنفون العلوم الإسلامية ضمن العلوم الإنسانية .

الإنسان لا يستغني عن أخيه ، ولو كان الاستغناء ممكنا ما جمع الله البشرية على كوكب واحد **(يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)** .

- **الثاني** أن التجاور والتّساكن الموجود بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية لا يؤثر على العلوم الإسلامية ، لأنّ العلوم الإسلامية "إنسانية" بطبيعتها ، فرفض العلوم الإسلامية للعلوم الإنسانية يُجرّدها من خاصية الإنسانية .

- **الثالث**: أن التكامل المعرفي بين العلوم "خاصّية" من خصائص العلوم الإسلامية لا يمكنها رفضها، والسبب أن التكامل مورس بين علوم الإسلام كلّها .

- **الرابع**: خصائص العلوم الإسلامية من خصائص الإسلام ، فعالمية العلوم الإسلامية وشموليتها تفرض التّكامل والتّفاعل ، فلا غرابة أن تدخل العلوم الإسلامية في العلوم الإنسانية ، ولا غرابة أن يُساهم المتخصّصون بالعلوم الإسلامية في خدمة المعرفة والحضارة الإنسانية .

لكن كل هذا ليس على إطلاقه، ولا يمكنه أن يُتخذ ذريعة للذوبان والانحلال والتضييق وحتى التمييع .

4- تكامل المعارف مطلب إصلاحي

قبل أن يكون التكامل بين العلوم موضوعا يحتاج إلى معالجة في محاضرة أو مؤتمر أو كتاب نقول بأنه مطلب إصلاحي، فتحقيقه يتطلب إرادة سياسية ورغبة إصلاحية في التعليم، فالتكامل هو ما ينقص التعليم الجامعي وغير الجامعي، التكامل أساس انفتاح التخصصات وسبيل ربط الجسور بين المعارف. ومعلوم أن ميثاق التربية والتكوين ، والقانون الإطار 01.00 وغيرها من القوانين والقرارات والمراسيم كلها تفسح في المجال نحو ربط الجسور ، والتكامل المطلوب لا يتحقّق إلا به. فالقانون موجود لكن التّفعيل إلى حدّ الآن مفقود. بالأمس ومع نظام الباشلار الجديد الذي ستُقبل عليه الجامعات المغربية تمَّ التوقف عند هذا الموضوع ، وبادرتْ الإدارة الوصية بوضع خُطوات ومقترحات إجرائية في هذا المجال، من ذلك إلحاق بعض مؤسسات جامعة القرويين مثل كلية الشريعة في أكادير بجامعة ابن زهر، وكلية اللغة العربية في مراكش الحقت بجامعة القاضي عياض وغير ذلك ، وهذه مبادرة نحو تفعيل التكامل بين العلوم والمعارف نامل أن تتكلّل بالنجاح رغم كونها غير كاملة. لا يمكن

لكلية الطب أن تبقى بعيدة عن العلوم الإنسانية ، الكلية في حاجة إلى مادة الأخلاق واللغة العربية على الأقل. ولا يمكن لكلية الهندسة أن تبقى هي الأخرى بعيدة عن العلوم الإنسانية كما لا يمكن للحقوق والقانون أن تبقى بعيدة عن قواعد وطرق التعامل مع النص القانوني إسوة بطرق التعامل مع النص الشرعي في الدراسات الإسلامية ، كما لا يمكن للقانون ذاته أن يبقى بعيدا عن الشريعة الإسلامية. أما التربية على المواطنة فتكاد لا تُذكر في مجمل التّخصصات ، ومثلها قضية التربية الإسلامية التي أُثيرت حولها ضجّة كبيرة ،وهكذا في مجالات أخرى من مجالات العلوم الإسلامية والإنسانية والقانونية والطّبيعية .

5- التكامل خصوصية نقلانية

إذا تساءلنا عن العلاقة بين "النّقلانية" و"تكامل المعارف" نقول إنها علاقة وحدة الوجود، النّقلانية هي التكامل العلمي والمعرفي، والتكامل هو النّقلانية في صيغتها التّحديدية، لقد راعتْ العلوم الإسلامية طبيعة التكامل ، وكان التنصيص عليه كشرط داخل نسق العلوم الإسلامية، فهو من شروط المفسر والفقيه والأصولي والمحدث والمشتغل بالعقيدة، وبهذا الشرط

نبغتْ العقول الكبيرة في الثّقافة الإسلامية. تجد التّنصيص عليه في "بناء العلوم" وفي "تصنيف العلوم وفي" فلسفة العلوم" وفي" تاريخ العلوم" إلخ . ولذلك ف "التّكامل" ليس مطلبا جديدا بل خصوصية نقلية، وهذه الخصوصية لن تكون سليمة ومستقيمة إلا بالمحافظة على التخصص والانطلاق منه نحو التكامل ، فنشدان التكامل من دون تخصص تحامل ليس على المعارف والعلوم فحسب، بل على المكونين والطلبة الباحثين. نعلم أن دراسة الفقه المقارن هو ضرب من التكامل الداخلي في علم الفقه لكنه لا يسمح به للطالب إلا إذا تكوَّن واستوعب مذهبا فقهيا معينا منه ينطلق إلى معرفة بقية المذاهب ، وكذلك في القراءات القرآنية أو القراءات المقارنة لا يسمح بها إلا لمن أتقن قراءة واحدة على الأقل ثم من منطقها يُقارن ويتعلم ، ومثل هذا في العقيدة الإسلامية وفي غيرها... فالتكامل يكون منطلقه التخصص أولا .

ثالثا: المواصفات السلبية للتكامل

إن الذي حوّل التكامل إلى تحامل على العلوم الشرعية عوامل لا بد من تحديدها ، وهي:

1- سبب ذاتي نفسي :

يحاول بعض الباحثين أن يقولوا كل شيء ، والباحث مثل المالك والآكل والشارب ، فبعض المالكين يريدون تملك كل شيء ، ويستحوذون على أي شيء ، وهذا من فرط التملك ومن مرض نهم الملكية ، والآكل النهم يأكل كل شيء لا يفرق بين المأكول المشروع والممنوع ، كل ما هو صالح للأكل يؤكل ، والشارب النهم يشرب كل شيء ، فكل ما يشرب صالح للشرب عنده مادام ليس قاتلا ، لا يفرق فيه بين الجائز وغير الجائز. كذلك بعض الباحثين هم من هذا الصنف ، يقولون كل شيء ، ويتكلمون في أي شيء ، لا يهمهم الزاد الذي يتقوّون به ، ولا يلتفتون إلى القواعد والضوابط الموضوعة لكل كلام علمي في حقل أو حقول علمية محددة .

2- سبب علمي تكويني :

وذلك أن بعض الطلبة الباحثين في سلك الدكتوراه سُمح لهم بالخوض في موضوعات في التّخصصات العلمية الإسلامية باسم التكامل في العلوم ، لم يُمنحوا وقتا للتكوين الذاتي ، فجمعوا من الغرب والشرق ، ومن الجنوب والشمال ، وضمّوا بعضها إلى

بعض ، ظانين - ظن الواهم- أنهم إذا ركّزوا على الكتب المُشرقة والمُضيئة من كتب الفلسفة واللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس فإن ذلك سيشفع لهم في البحث العلمي .

3- سيادة خطاب التعجرف :

المتعجرفون أصناف، يهمّنا منهم الصنف الذي يجعل من التكامل مطيّة ، يُعرفون من خِطاباتهم ، هؤلاء في كل العلوم الإسلامية : في العقيدة وعلم الكلام ، في التاريخ والفقه ، في الأصول والمقاصد ، في اللغة والقراءات ، في السنة والحديث إلخ، يميلون إلى تركيب الكلام أكثر من تحليله ، وإلى تعتيمه أكثر من بيانه وتوضيحه ، يوردون الشواهد تعريضا ، وينتقصون من النظريات والأعلام ، وهو أسلوب يُعوضون به نواقص العلم ، ميّالين إلى اصطياد الأزمات، والكلام عن النّكبات ، يتصيّدونها من الواقع ويُلصقونها بالتراث كما لو أن التراث هو المسؤول عن ثقب الأوزون، أو هو سبب انهيار العملة ، أوهو سبب الفساد الإداري والأخلاقي والسياسي إلخ، فكل الكوارث حسب منطق المُتعجرفين سببها "التراث"...، ثم إنهم يتغذّون من الشّائعات فيجعلون منها حقائق تاريخية، وإلى الأوهام والخُرافات المتداولة

بالأفواه فيصيّرونها حيّة وواقعية ، ويعملون على تهييج العواطف ليجعلوها عواصف. منطقهم الذي يُحركهم يوجد في خارجهم، إنهم يحملون الخارج في الداخل ، ويكابدون لأجل الإتيان بالجديد الذي " يفجر المعرفة" ، و"ينقد الحقائق الجاهزة " ، و"يعيد النظر" و " يُثور المعرفة" في كلّ شيء .....

خطاب المُتعجرف خطاب تقريري ، يُصدر الأفكار على شكل أوامر ، يمارس سلطة النقد الهادم ، سلطة امتلاك المعرفة ، والحقيقة عنده لا عند غيره ، فهو عالم بالمطلق ، يدعي الفهم في كل شيء ، وجاهز ليقول أي شيء عن كل شيء ويميل إلى "التصنيف" لأن التصنيف أحسن وسيلة لاختصار الكلام .

4. مُجدّدون على رأس كل أسبوع :

هؤلاء خالفوا منطوق الحديث الصّحيح المشهور المرفوع : (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) ، كثر المُجدّدون، وتعدّد المجتهدون والعلماء المُبرّزون ، يحضون بالدعاية ، ويتمتعون بالرعاية ، هم في كل مكان ، يُطلون علينا برؤوسهم على رأس كل أسبوع تقريبا ، يجتهدون في

التجديد والتحييد ، يتتبعون شواذ الفكر ، وما جرى فيه الخلاف ، وكل خبر منكر وموضوع، وكل رواية لها سياقات وملابسات وأسباب ورود ونزول، يُعاد الكلام فيها بنبرة التطرف وبأسلوب التعجرف ، هؤلاء يبعثون على رأس كل أسبوع ليشوشوا على الأمة أمر دينها .

5- مواصفات سلبية أخرى:

- إنّ التّعسف في افتعال (التكامل) من شأنه أن يجعل الكلام مختلطا ، تختلط الأيديولوجيا بالعلم ، والسطحيات والبدهيات بالانطباعات والأحاسيس والمشاعرالخاصة بالباحث ، الرؤى المسبقة بالوسائل والقواعد البريئة ، الأوْلى بهؤلاء تحويل الدراسة الكمية إلى مقال كيفي ، مختصر وموجز ، يبسط فيه صاحبه رأيه الشخصي وانطباعاته الذاتية، وميولاته المذهبية ورغباته الأيديولويجة إذ لا يمكن الرّكوب على النّص وليّه لتحقيق المُراد.

- الوقوع في مثل هذه المتاهات يدلّ دلالة واضحة على أنّ ناشد التّكامل له رغبة في الكلام لأجل الكلام ، يُريد إنتاج الكم

لأجل الكم ، لا توجد لديه خطة علمية منهجية يتوسل بها لتوصله إلى رؤية منسجمة تحل الأزمة ، ثم هناك دليل آخر هو غياب النماذج التطبيقية في العمل ، فبحوث هؤلاء تعوم في التجريد ، تجريد لا تُرجى منه فائدة عملية ، والنّصوص التشريعية هي مما يُبنى عليها العمل ، ومن مقتضيات ذلك (الإيمان) بها أولا... كثير من الباحثين الراغبين في القراءة الجديدة والطامحين في التكامل عاطفتهم تجاه النص التشريعي هشّة وضعيفة ، ومثل هذه الأعمال تكون نتيجتها هشّة وضعيفة ، زد على هذا واقعية الطرح من حيث صلته بالمجتمع وبالقضايا السياسية والاجتماعية والثقافية ، وكلامي هنا عن ادعاء التكامل في النص الشرعي لا النصوص التي لها صلة بالأدب والفلسفة والشعر والتاريخ والثقافة العامة .

- لا يجب أن نكون كالمغني الذي يُلقي بالكلمات بلا معنى ، باحثا عن الغُنة والرنّة والإيقاع، لا نبحث عن الإيقاع الفكري ولا الرنّة المعرفية ولا الغُنّة الأسلوبية ، التعامل مع موضوع كهذا في إطار كهذا تعامل " عِبادي"، ونحن نطمح إلى التكامل المُفضي إلى العمل لا التكامل الذي ينحبس في النظر.

- علوم الإسلام بعيدة عن " التّطرف " ، لكونها تُحاربه ، فلا يمكن أن نحكم عليها بما تُحاربه ، وهي تناهض " الغلو" وتدفع نحو الوسطية والاعتدال ، " التطرف " يوجد في الذّوات الخالية من العلوم أو التي لم تأخذ نصيبها الكافي منها ، وكذلك الغلو ، كلما افتقرت الذّات إلى العلم فقدت التوازن ووقعت في إحدى الرذيلتين : الغلو المُفضي إلى التّطرف أو الانحلال المتولد عن الجهل ، لذلك فالصّراع بين العلوم الإسلامية والمعارف والحضارة والعلم هي أمور مُفتعلة تمتد جذورها إلى الفكر الغربي. وقد غزت العالم الإسلامي من أوروبا. فصراع العلم مع الدين والكنيسة مع الدولة أمر عرفته أوروبا في تاريخها ولا يوجد في تاريخ الإسلام ولا في العلوم الإسلامية .

لو كان الغلو في العلوم والتطرف في المعارف الإسلامية لكان الشاطبي والشافعي وابن خلدون والقاضي عياض والغزالي وأضرابهم متطرفين ومغالين ، فالعلوم الإسلامية والمعارف التي تُستفاد بأسبابها العلمية بريئة من الغلو والتطرف.

رابعا: القراءة الجديدة للقرآن : تقويم وتقييم

أخذنا من المجالات مجال القراءة الجديدة للقرآن الكريم ، وقد توقفنا عنده لصلته بالقرآن الكريم الذي هو شمس العلوم ومنبعها ، وضعنا هذه القراءة في ميزان تكامل المعارف تقويما وتقييما ، محددين منهج القراءة والقراءة المضادة وعناصر المنهج، وعالمية الخطاب القرآني ومكوناته .

1- "القراءة الجديدة للقرآن" في ميزان تكامل المعارف

من التّناقض البيِّن أنّنا ندعو إلى التّكامل بين المعارف ونحن نمارس القطع بين العلوم ، جل المتخصّصين في العلوم الإسلامية قابعون في تخصّصاتهم ، يرونها كلّ شيء في الفهم والمعرفة. بل منهم من يُسخرها لهدم علوم إسلامية أخرى ، وقد وصل بنا الحال إلى التّفريق بين الأصول الشرعية الأصلية : القرآن والسنة، **فكيف أثق بكلام من يدعون إلى التكامل بين العلوم الإسلامية والإنسانية والطبيعية وهم يساهمون في القطع بين القرآن والسنة؟ هؤلاء كدعاة مُفلسين يدعون إلى صلة الرحم وهم أول من يقطعها.**

من خلال الطّرح يتبين أن علاقة بعض "البحثة" مع القرآن الكريم ليست طبيعية، فالقراءة بهذا المعنى تطمح إلى " إعادة تنظيم" العلاقة مع القرآن، والذين لهم علاقة طبيعية مع القرآن يقرأونه قراءة طبيعية، قراءة عادية ومألوفة، فالمشكل إذن في هؤلاء الذين ليست لهم علاقة طبيعية مع كتاب الله ، وهذا يدل على أن هذه القراءة تخصّهم لوحدهم ولا تخصّ جماعة المسلمين، من خلال قراءتهم الجديدة يمرّرون عنادَهم وجحودَهم وحيرتَهم إلى ميدان البحث العلمي، وهذه المحاولة جزء من محاولات سابقة مع القرآن في ذاته لا في قراءته ، لقد حاولوا مع " القرآن الجديد" لعلّه يكون المدخل أو المقدمة نحو "الفهم الجديد" و"المعرفة الجديدة "، وحين باءت المحاولة بالفشل عكسوا الخُطة إلى "القراءة الجديدة" لتكون مدخلا ومقدمة للقرآن الجديد ، إذا لم ينجحوا في القرآن ذاته فليعيدوا الكَرَّة مع القرآن في معرفته.

القراءة الجديدة للقرآن تعبير عن أزمة علاقة مع القرآن الكريم ، فهي **حاجة بشرية من القرآن** ، ولا يُوجد في القرآن شيء من الحاجات التي **يتوقف عليها القرآن في بنائه واكتماله** توجد

عند البشر سوى ما قرّره من أحكامه التي تنطوي عليها آياته ، وآداب وأخلاق التعامل معه وفق ما نصّ عليه في آياته وسوره ، وهي تدلُّ في مجملها على **توقف الإنسان على القرآن لا العكس** ، ومحاولات هؤلاء لها تفسير واحد هو أن القرآن حقّق مؤمنين وتابعين ، وتقتضي العداوة تكوين جيش من الجاحدين والمنكرين.

أما تكامل المعارف في القراءة الجديدة للقرآن فهي محاولة جديدة لعزل القرآن عن فضائه الداخلي ، وأنساقه العلمية ، وكان المستشرقون رواد القراءة الجديدة ، فهم يبحثون عن مركزية الحضارة والعرق والفلسفة والفكر والحقوق ، ومركزية المناهج مثل المنهج الفيلولوجي في إعادة كتابة تاريخ القرآن وعلومه، وهؤلاء لم يفرقوا بين" الخصوصية" و"التخصصانية"، الخصوصية لا تذوب ولا تنحل ، ولا يمكن لغير المقتنع بها والمؤمن بها أن يفلح في دراستها وبحثها ، لأنه حامل للعائق المعرفي والإيماني الذي يحول دون تقديم الحقيقة العلمية ، أما التّخصصانيون فهم أصحاب التّخصص في ميدان من الميادين، فبه ومن خلاله يسعون إلى قراءة التراث حتى ولو كان هذا التراث

تراث غيرهم ، العلوم الإسلامية هي خصوصية قبل أن تكون تخصُّصا ، والمتخصصون فيها إنما تخصّصوا بعد اقتناعهم وإيمانهم بهذه الخُصوصية ، ولم يثبت أن الإيمان بالإسلام رهين بنتيجة " البحث فيه تخصصيا" .

الخصوصية صبغة وسمة لا يملكها أحد إلا بتملك الإيمان ، أما التّخصصانيون فلا يملكون سوى تخصصاتهم، وهي التي تُملي عليهم المعتقد أو غير المعتقد ، لكن غالبية الذين ولجوا سوق العلوم الإسلامية من المستشرقين دخلوها بمعارف قبلية وبأحكام جاهزة مبيتة ، النتيجة تمّ الحسم فيها قبل إقرار عملية البحث ، ومن هنا ضربت نزاهة البحوث الاستشراقية في الصميم.

يمكن أن نُقيم مقارنةً بين خصوصية العلوم الإسلامية وتخصّصانية هؤلاء، فخصوصية العلوم الإسلامية توحيدية وحدوية ، وهي إنسانية وإيجابية ، أما التّخصصانية فهي ذات منزع تفريقي تمزيقي .

2- متطلبات المنهج في القراءة

هل يستقيم الكلام عن القراءة الجديدة من دون منهج؟ يعد عدم تحديد المنهج في القراءة الجديدة فوضى وخبط وخلط، لا بد من التفكير في المنهج أولا ، لأن به تكون القراءة. والقراءة المبنية على المنهج تتولد عنها رؤية معينة، قد تكون صالحة أو غير صالحة، مستقيمة أو غير مستقيمة ، متماسكة أو غير متماسكة بحسب صلاح واستقامة وتماسك المنهج.

إذن ماذا يتطلب المنهج ؟ وكيف يتحصل؟

أعتقد أن شعارات الذين يدعون القراءة الجديدة أكثر من علمهم ، وادعاؤهم أكثر من عملهم، لأن بناء المنهج يتطلب ما يلي:

أولا : التملك المعرفي ، ونعني به الوقوف على الجهود المبذولة في الموضوع: كم من فكرة قيلت؟ وكم من تصور تم تقديمه من قبل صاحبه وقد قيل قبله بقرون، ما قيل في الموضوع يجب الوقوف عليه ، لأنه دين يلزم الوفاء به ، ولا يعني هذا الوفاء غير المعرفة ، فالتجاوز من دون معرفة جهل ، والقفز من دون إدراك للجهود المبذولة عجز.

ثانيا: التملك النقدي ، وهو شرط أساس في البناء ، ليست كل الأدوات صالحة للاستخدام وللاستعمال ، فلا بد من التمييز بين ما يصلح ويجب التعويل عليه والاستئناس به ، وما لا يصلح يجب تركه، أشياء كثيرة صالحة في ذاتها، صالحة لعصور تقدمت، وغير صالحة لهذا العصر، يجب تركها باحترام وتقدير ، وأشياء غير صالحة البتة ، وهذا كله يحتاج إلى الحس النقدي المنبثق من العقلية النقدية ، لأن العقلية الإسلامية بطبيعتها عقلية ناقدة ، وكل العلوم على النقد تأسست ، والبناء يُحتاج فيه إلى النقد.

ثالثا: التملك التكاملي: ونعني به النظرة المركبة من العلوم الضروري استخدامها في القراءة الجديدة ، فإذا كانت نظرة القدامى الاجتهادية التي بنت المعارف والعلوم نظرة تكاملية، فلا يجب على العقل المعاصر الذي ينشد التجاوز والتحديث والجدة أن يتخلف عن هذه الخاصية، خاصية التكامل المعرفي وإلا كان متخلفا عن العقل القديم ، عليه أن يتملك اللغة العربية لأنها لغة القرآن ، وأن يتملك السنة النبوية لأنها حقيقة البيان ، وأن يتملك معارف علوم القرآن لأنها أساس فهم القرآن...

رابعا: تملك علوم الإنسان وهو شرط أساس في القراءة الجديدة ، لقد استجدت فهوم ومعارف وعلوم وأنساق معرفية ومناهج لا بد من الاطلاع عليها ، والباحث المتمكن من صنعته هو الذي يجيد توظيف هذه العلوم بحسب مقامها ، وبحسب الحاجة إليها ، وبالقدر الذي يصلح منها للمقام، وكل توظيف عليه أن يكون للحاجة وبمقدار تلك الحاجة ، فالبعض يغلب عليه **الإسقاط** ، فهو يسقط كل ما يعرفه من علوم الإنسان على فهم القرآن باسم القراءة الجديدة ، وعند النظر يتبين بأنه لا يعرف غير ما يُسقط ، بخلاف الذي **يجتر** من الماضي فيغلق الباب في وجه كل جديد ، هؤلاء على طرفي نقيض لا يستفيد منهم المنهج المراد توظيفه في القراءة الجديدة في شيء.

إن ابتلاع كل ما في علوم الانسان من شأنه أن يُحدث في بطن القراءة الجديدة **وجعا** ، قد يكون الأمر مسلما به في غير القرآن أما وأن الأمر يخص القرآن فالأمر يختلف .

خامسا : التملك المقصدي ، وهو شرط أساس ، كثير من دعاة الرؤية الجديدة أو القراءة الجديدة لم يحددوا الهدف الذي لأجله أرادوها، لماذا القراءة الجديدة ؟ ولأي مقصد؟

اتضح معهم أن القراءة الجديدة هي لأجل القراءة الجديدة، وأن للعمل كله قصد واحد هو **الإغراب والإثارة** ، وتتداخل هنا بعض الأمراض النفسية التي تستدعي دراسات سيكولوجية لفهم نفسية كثير من دعاة الرؤية الجديدة ، ولذلك فإن تحديد **"القصد"** من مستلزمات القراءة الجديدة يجعلها نافعة ومفيدة يُبنى عليها عمل، وطبيعة الثقافة الإسلامية أنها مما يُبنى عليها العمل، وقد تكلم الشاطبي في هذا الموضوع كثيرا لا سيما في القواعد الأولى الممهدة للموافقات.

إن مما يعين على التحقق من القصد الخروج من التنظير إلى التطبيق أو المزاوجة بين النظري والتطبيقي في أي عمل علمي ينشد تجديد قراءة القرآن الكريم.

سادسا: تملك علوم القرآن: علوم القرآن هي علوم للقرآن الكريم ، لما وُجد وجُدت معه ، ولما سافر في الزمن سافرت معه ، فهي مفتاحه ، وقد وُضعت لأجله ، فلا يمكن الدخول إليه إلا من خلالها. وأي دعوة للتجديد يجب أن تشملها هي أيضا ، وإن التعامل مع القرآن مجردا من علومه نوع البداية من الصفر، فهل يستقيم الكلام عن القرآن بأية قراءة أردنا من دون معرفة

التنزلات وأسباب النزول والمكي والمدني والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وترتيب الآيات والسور والقراءات القرآنية...

إن التملك المراد هنا لا يعني بقاء الأمور كما كانت بل إن هذا النوع من التملك يجب أن يصحبه التملك النقدي الذي تمت الإشارة إليه.

سابعا : تملك علوم البيان ، وهي علوم بيان القرآن ، مثل اللغة العربية والتفاسير اللغوية للقرآن ، وإعجاز القرآن وتناسب الآيات والسور، والبنائية والنسقية ومشكل القرآن والأضداد والأمثال والقصص والأحكام ... لا بد أن يُبنى جانب من القراءة الجديدة على هذه المعطيات التي هي شرط أساس في البناء .

3- عناصر المنهج والقراءة المضادة

هناك نظرة سلبية إلى المنهج ، هذه النظرة هي التي تعاينه من موقع أنه واحد مفرد ، وهذا خلل ، فالمنهج واحد مركب من عناصره ، ولا يمكن أن ننشد المنهج ما لم نحرر النظر في العناصر المكونة له ، ثم نكتسب عنصر التملك المعرفي والنقدي لتلك العناصر ، المنهج بناء ، والذي لا يجيد تتبع عناصر البناء لا

يمكنه أن يتملك المنهج ، وإن منهجا كالذي يراد له أن يسود في قراءة القرآن قراءة جديدة لفي حاجة إلى تملك عناصره. فالمنهج في علم من العلوم يسافر عبر الزمن ، يتأسس ثم ينطلق ، ويقطع مراحل وأطوار وأدوار. في كل مرة تضاف إليه تكملة ، ولذلك فعنصر التملك يتطلب السير مع هذا الخط ثم الوقوف على المحطات المفصلية للمنهج بغية معرفة ثغراته وتجاوزها، وهذا هو **الاجتهاد الحق**.

المنهج يكتمل ببناء عناصره ، الوحدات الصغرى المكونة له يجب أن تُعرف وتُحدد وتُحصر ثم تُبحث ثم تركب بصيغة كلية ، لا يستقيم الكلام عن المنهج في القراءة الجديدة ما لم نقف على الوحدات الموضوعية مثل : التوفيق بين القراءتين ، الهيمنة والتصديق، الشهادة، الرسالية ، العالمية ، التوحيد، الإطلاق ، البنائية ، النسقية ، التناسب ، السياق... والوحدات المنهجية مثل : الاستقراء ، الاستنباط ، الاستدلال، المقارنة ، الاستنتاج، النقد، المراجعة ، التحليل الموضوعي ...

في كل تأسيس وبناء لابد من استحضار المعاكس ، هناك قراءات للقرآن سائدة ، وهناك قراءات مضادة ومناقضة ،

وهناك قراءة يُراد لها أن تكون جديدة. والنظر في كل ما هو موجود من مستلزمات البناء ، ثم إن الكلام عن العالمية للقرآن الكريم يجب أن يستحضر العالمية النقيضة ، ونعني بها المخاصمة للتوجه القرآني بصفة عامة ، والصراع اليوم هو حول الزعامة على الفكر والثقافة والمعرفة ، والخصام بين العالمية والعولمة جار وماض يمكن أن نستخلص درسه مما يجري في الواقع .

4-عالمية الخطاب القرآني:

الكلام عن عالمية الخطاب القرآني يجب ربطها بمقصدها ، أي تحديد المقصد من العالمية نفسها التي هي خاصية من خصائص الكتاب العزيز، خاصية العالمية مرتبطة أساسا بالعيش على هذه الأرض على صواب ، الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه للبشرية كلها لتعيش على حق وعلى صواب ، وتلك هي العبادة الحقة ، فالذين يربطون العالمية بالحضارة والتحضر والمدنية لم يصيبوا الهدف. فلو أراد الله تعالى ذلك وكان هو قصده الأساس لنزل الكتاب العزيز في بلاد فارس والروم والهند ، وهي أرض الحضارات ، لكنه لما اختارالجزيرة العربية ورشحها

لتكون مهدا للنبوة والرسالة العالمية دل هذا على أن التحضر غير مقصود لذاته ، وأن المقصود هو عبادة الله عز وجل كما أمر وحدد.

يجب أن يكون هذا البعد حاضرا في كل كلام عن "عالمية الخطاب القرآني" كما يجب أن يكون ماثلا عند كل ذات معاينة للموضوع . لذلك لا مناص من التوقف عند الوحدات البنائية للعالمية الكلية للقرآن ، ولن تكون هذه الوحدات غير ما حدده القرآن نفسه من مثل : الخلق ، التعيين ، التمكين ، الاستخلاف، التكريم ، العدل ، النبوة والرسالة ، العبادة ، الرحمة ، النسخ ، الخاتمية ، الخروج ...

القرآن عالمي في ذاته وبأحكامه ، ولا يمكن الركوب على العالمية لتقديم خلطة عجيبة بدعوى تجديد القراءة ، فلا يلزم من العالمية اعتماد الآراء البشرية وإسقاط الفهوم الإنسانية وكل ما هبّ ودبّ من المعارف والفنون تُسقَطُ على القرآن بدعوى العالمية ، وتجب الإشارة إلى أنّ هذا الإسقاط ولَّد رؤية أخرى للقرآن.

5- مكونات عالمية الخطاب القرآني

من مستلزمات الكلام عن عالمية القرآن استحضار مكونات هذه العالمية ، ونعني بالمكونات ما به تكون العالمية أو كانت العالمية:

أ- **لغة القرآن الكريم:** اللغة التي نزل بها ، ونزل فيها ، ونزل لأجلها. فالمحافظة على لغة العرب تعني المحافظة على لغة القرآن، والتضييق على لغة العرب أو جهلها أو تجاهلها من شأنه أن يبعد القرآن عن العالمية ، فهو عالمي بلغته لا باللغات الأجنبية، إن استحضار اللغات الأجنبية بالاكتفاء بالترجمات إلى لغات العالم من شأنه أن يُبعد القرآن عن العالمية بالاكتفاء بمعانيه فقط كيفما اتفق. وكثير من **المتكلمين** في الموضوع **أميون** لا يعلمون لغة العرب وإن أتقنوا اللغات الأخرى وتفننوا في استيعاب الثقافة الغربية وتسابقوا إلى الاسقاط والإغراب بدعوى القراءة الإيبستيمولوجية والقراءة اللسنية والقراءة السيميائية ...

ب- **الاجتماع:** الذي هو أساس في العالمية ، لأن الله تعالى أراد الناس مجتمعين لا مفرقين ، ولذلك جعلهم أمة واحدة فألف

بينهم، وزرع المحبة بينهم ، وأرادهم أن يعبدوه مجتمعين لا مفرقين. لذلك كان الأجر في العبادة الجماعية أكبر من العبادة الفردية، بل قد تكون العبادة الفردية غير مقبولة وباطلة في بعض الأحيان مثل الوقوف بعرفة في يوم غير اليوم الذي يقف فيه الناس جميعا. فلا بد إذن من استحضار البعد الجماعي لأنه من مكونات العالمية.

ج- **نظام العلاقات:** وهو من مكونات العالمية، لا اجتماع من دون نظام للعلاقات ، تبدأ تلك العلاقة بربط الإنسان بخالقه ، وربطه بنفسه لأجل إدراك إنسانيته ، وربطه بالمحيط الخاص والعام وبالكون، وكل علاقة من هذه العلاقات لها نظام يحددها ويبينها.

د- **النظام التشريعي:** وهو أساس العالمية ، فالله سبحانه سن الأحكام وشرع القوانين وبين أن الامتثال لهذه الأحكام هو العبادة الحقيقية ، وعالمية القرآن **تشريعية** بالأساس ، وهو بعد يجب استحضاره على الدوام.

هـ النظام الأخلاقي والقيمي: وهو من أسس عالمية القرآن الكريم ، فهو دين المحبة والرحمة والأخوة والتعاون والتآزر، وهو دين العطف والرأفة والحنان والتسامح ، كما أنه دين الوسطية والاعتدال ، وهذا المكون هو الذي أعطى للإسلام صفة العالمية على سائر الأديان والمعتقدات ، وهو نظام موحى به من الله عز وجل لا يملك المسلم إلا الإذعان له.

العائق في تحقيق العالمية يبدأ من المسلمين أنفسهم ، كل الأديان اليوم سماوية ووثنية والتي لا تنشد العالمية ولا تفكر فيها متصالحة مع نفسها ، الهندوس متصالحون مع الديانة الهندوسية ، والبوذيون متصالحون مع الديانة البوذية ، واليهود متصالحون مع يهوديتهم ، وكذلك المسيحيون ، بل إن المسيحيين يتعانقون مع اليهود اليوم، بينما نجد المسلمين في خصام مع دينهم ، ويتجلى هذا الخصام في بعض القراءات الجديدة التي تريد أن تغير وتحول وتحور في الثوابت ، وبعضها انتذب لإتمام المسيرة التي بدأها المستشرقون منذ قرون .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.